التدلال بالتشبيه في كتابات الإبراهيمي؛ القياس وترهين المرجع الثقافي

Significance by analogy in the El-IBrahimi writings: measurement and mortgage of the cultural reference

د. مبروك دريدي

جامعة محمد لمين دباغين – سطيف2 (الجزائر)

تاريخ الإرسال: 2020/03/03 **تاريخ القبول:** 2020/03/17

ملخص:

يتجلّى التشبيه في اللغة صورة للقياس في استخدام الكلام، قصدا وإرادة الدلالة حدثا وهو ما يتيح تأويله باجتياز مظهره الخطابي إلى محضنه ومحفله القابع في الوجود التاريخي لثقافة استغرقت لغة الجماعة. تحاول هذه الورقة اكتشاف الثقافة تأويلا عبر قراءة التشبيه في كتابات الإبراهيمي بمقاربة تذهب إلى محاولة إدراك لسلطة الثقافة الملزمة لحدث التنصيص لدى الذات الواعية بتمام حدثها التواصلي المجبر على تماثل في المرجع مع من تتقصده بحدثها الدلالي. وفي هذا نحاول تأويل الرابط في التصور بين المتكلم والمتلقي/القارىء بفهم الفهرس الثقافي المشترك والجامع بين الإبراهيمي ذاتا بهوية ثقافية وبين المتلقي له في سياق حدث نصه داخل اللحظة التاريخية التي سببت وحدّدت تداول الدلالة.

الكلمات المفتاحية: التدلال، التشبيه، المرجع، الثقافة، الإبراهيمي.

Abstract:

The analogy in language is manifested by an analogy in the use of speech intentionally and the will to signify an event, which allows its interpretation by passing its rhetorical appearance to its incubator and its forum embedded in the historical existence of a culture that took the language of the group. This paper attempts to discover culture in interpretation by reading the analogy in Brahimi's writings with an approach that goes to an attempt to recognize the authority of the culture that is bound to

the attentive event of the conscious self by the fullness of its communicative event compelled by identical reference with those you mean. In this we try to interpret the link in the perception between the speaker and the recipient / reader by understanding the common cultural index and the one between Ibrahimi with a cultural identity and the recipient in the context of its text event within the historical moment that caused and limited the circulation of significance.

Keywords: significance, analogy, reference, culture, Ibrahimi.

تأطير:

تعدُّ كتابات الإبراهيمي نصوصا شاهدة على الذات الجزائرية؛ التي استغرقت في تاريخية دالها ومدلولها، واستفهمت كفاءتها على التفكير والتعبير في زمنية ثقافية مخصوصة، ومحدّدة بفضاء مدلول فكرًا وتداولًا في الواقعة ومعناها المجرد، ومعلوم في ذلك أنّ الإبراهيمي في استخدامه لجهاز الدلائل اللّغوية في فعله التواصلي، أنتج نصًّا مشتركًا في الدلالة على راهن ما كانت تدركه الذات الجزائرية وما تعيه وتعقله من وجودها التاريخي والثقافي، وحركتها السوسيونفسية في استغراقها الفاعل، ضمن إرادتها وقصدها المحكوم بتعقّل هويتها والاتجاه إلى ترميم حضورها التاريخي.

لقد تكلّم الإبراهيمي في زمنية الشخصية الجزائرية المعتدى عليها، فقد كان السياق سياق تفاعل جدلي بين ذات ثقافية متأرخنة في نصّ مستقل حضاريا، وذات اعتداء تمثّلت في معتدٍ برّر فعله الوحشي بوهم التفوق، ومصادرة رتّبها مقدمة متخيّلة لما سبّب سلسلة الاعتداء على ذات مختلفة ومستقلة ثقافيا، فالأمر لم يكن مجرّد علاقة استنفاع مادية، أو أخذ لشيئية الأرض وعطائها، كما يذهب البعض في اختزال واقعة الاحتلال، ومنجز اعتدائه على ديموغرافية حضارية معرّفة ومعروفة ثقافيا وتاريخيا، وهو ما يجعل استفهام النّص الإبراهيمي –كما غيره من نصوص الهوية– عملًا قرائيًا يستدّل على العمق الناظم لنشوئه والمرجعيات الحضارية لتدلاله ومقولاته، لأنّ القضية ها هنا في استنطاق النّص الإبراهيمي ليست قضية بحث في جمالية تشكيله والتدليل على تفوّقه البنيوي في استعمال الملفوظ

وتركيبه، ولا بحث في سؤال البلاغة بالطرح الإستيتيقي لها، ولا تدوير السؤال في قضايا التشكيل اللّساني والأسلوبي ومستويات البناء الفنّي.

لم يكتب الإبراهيمي نصّه في سياق سريالية فنّية، ولم ينشأ نصّه في زمنية ترفية، ولم يستهدف من إنتاجه استعراض كفاءته في وسط الجدارة الفكرية والفنّية بالمعنى الإبداعي ضمن تاريخ تنافس وتجاور النصّ، بل كان مدوّنه واقعية استولدها هدفٌ أعلى في التواصلية، وسبّبها أفق تداوليٌّ حضاري، تعلّق بقضية جمعية اجتماعية، فاضت عن بؤرة حدّدتها هوية تواجه مصيرها الحضاري التاريخي، ولذلك كان البناء الفنّي للمقولة النصّية مظهرا لا جوهرًا، واستقام التداول في ذلك على مقتضى المجتمع وشبكة اجتماعه المقصود في منجزه الوقائعي، والمحكوم بهدف كينونته الباحثة عن إنهاء الاعتداء، واستئناف تدفقه الحضاري، فمدونة النصوص الإبراهيمية كانت استجابة لهذا الأفق، وتحقيقا لمطلبه في ممارسة التواصل بالنّص. وهو ما يضع حقيقة النّص وفهمه، أمام سؤال التداول والتواصل، ومآلات الفعل المنتج فيه وبه، ومنجزه في ربط علاقات الفهم والوعي وإنتاج العمل القاصد نحو ذات تريد استرجاع جدارتها الحضارية، وهو ما يعني أنّ سؤال النصّ الإبراهيمي في مستوى بنيويته المغلقة، إنّما هو نفيٌّ له واختزالٌ لهويته في الفكر والتشكيل.

يضع هذا الإطار سؤال القراءة للنّص الإبراهيمي، في مواجهة حدود موسّعة خارج معنى الدلالة المحايّثة له، ويذهب به في اتجاه البحث عن مولّدات نسقه المنظوم في التلفّظ ومولّدات تحقّقه في التواصل، وهو ما يلزم الفهم لهكذا نصوص باعتبارها في النصّية الثقافية التاريخية الّتي تكون قد نشأت ضمنها، ولعلّ أوّل ما يجب إدراكه في ذلك هو انتماء النّص الإبراهيمي إلى زمنية نصّية أطّرها وحدّدها الالتزام، وخلّقها "مقصدٌ" عميق في إرادة الذات المتكلّمة بالنّص، والمتواصلة به دلاليا مع من ينتمون إلى بؤرتها الفكرية، ومعلوم أنّ الأديب الملتزمُ يسعى إلى "تقويم الأدب على أساس ما تضمن من الفضائل، وبمقدار ما أشاد بها ورغب فيها بما صوّرها صورة زاهية تبعثُ في نفوس المتلقين إعجابا بها، وتقديسا لمبادئها وكذلك عرض الرذائل بصورة تشمئز منها النفوس، وتحملها على النفور منها"[1]. وهكذا فالإبراهيمي لم يكن كاتب جمالية فنية، بل كان كاتب قضية تقاطب فيها ما يجب الإقبال

عليه، وما يجب استهجانه والنفور منه، فجميع نصوصه تقع في فضاء تواصلي "يلتزم" باستنهاض الهوية، وبناء الذات الوطنية الحاملة لها، وتوعيتها بمقاومة الاعتداء عليها من طرف "الآخر" الفرنسي الذّي جعل من اختلافه توهمًا برّر في المغالطة الشوفينية (Chauvinisme)؛ التي بناها على تفوق ثقافته، واعتبار ثقافة الجزائري دونية متخلفة بدائية (Primitive). لذلك ومن أجله جاءت كتابات الإبراهيمي منجزا عمليا في صناعة اللغة للتدلال، يقوّض تلك المغالطة، ويشهدُ بالمنجز التداولي على كفاءة الذات الجزائرية ثقافيا وحضاريا واجتماعيًا، فصناعة المتحقّق النصّي بما هو حدث تواصلي، هو ترهين لثقافة حيّة ذات كفاءة في جدلية السؤال والجواب بما هما محركا المعرفة ومسببا الفهم والتراكم العقلاني داخل الهوية المتميّزة والمستقلة.

تعدّ شاهدية النّص في التداول والتواصل، دليلًا عمليا على كفاءة المتكلّم/الكاتب في العلاقة العضوية بالمتلقي/القارىء، ويعدّ ذلك دالّا على أنّ اللّغة اللّسانية جهاز تعبير عن ثقافة مولّدة للفكرة ولبنائها، ويصير بذلك النّص فاعلًا تواصليا، وناتجا ثقافيا، يتعرّف قضية الهوية في التحقّق من جهة، ويشتغل بتقويض الدونية التّي توهمها المعتدي، واستسلم لها المغالَطُ الذّي استهدفه الآخر الظالم. وفي التدليل على ذلك يبدو سؤال النصّ في مرجعية العلامات وكيفية التشكيل، مدار الفهم في حدثيته التواصلية، فاستخدام العلامة اللغوية هو حاصل عملية "تدلال"[2]؛ والذّي هو سيرورة ترابطية تجعل من العلامة اللغوية منتجا لما تمثّله من ممكنات المعنى، وما تحيّنه من قصد دلالي يتراكب بين عناصر هي: شيئية العلامة وموضوعها بتوسط "التصوّر المخزون في ذهن الفاعل متكلّما ومتلقيًا".

إنّ التدلال بما هو سيرورة تنتج كفاءة العلامات في نهوضها بما يريده المستخدمُ لها، هو العلاقة التّي تستفهمُ حدثية التواصل بين القاصد بالعلامة، وبين متلقيها، وفي هذا يتضّحُ النّص في كيفيته التشكيلية بنيويًا، وتتحدّدُ مصدرية العلامات المنصوصة في فهرس التواضع التداولي لها، فالمعروف أنّ علوم النّص ومناهج دراسته استقرت على بيان يوضّحُ اشتغال العلامات بتحديد ذاتها وعلاقاتها، ولعلّ الأنموذج الأشهر الذّي يجيب هذا السؤال، كان ذلك الذّي قعّده الباحث الأمريكي الشهير في مجال التداولية "تشارلز موريس"؛والذّي حدّد

اتجاهات ثلاث لمقاربة العلامات في بيان حضورها الدلالي وأدائها التواصلي، فذكر أنّ: الاتجاه الأوّل هو النحو والتركيب (Syntax)؛ وهو ما تمثله العلامات في علاقاتها ببعضها. الاتجاه الثاني وهو الدلالة (Semantic)؛ وهو المتمثل في علاقة العلامات بما تؤول إليه. المستوى الثالث؛ وهو المستوى التداولي (Pragmatics) وهو ما يتحدّد في علاقة العلامات بمستعملها ومتلقيها (المتكلم/المستمع- الكاتب/القارىء).

يعني استفهام النصوص في ضوء هذا التّوجه السيميائي التداولي، قراءة النّص في تموضع تدلال علاماته، وشرطية المجال التواضعي/التوافقي للمتواصلين به وعبره، وهو ما يفرض على القراءة معرفة بالفضاء الدلالي للعلامات في مستوى تداولها القبل-نصّي، ذلك أنّ النّص ليس سوى ترهين لما تكون العلامات قد درجت عليه في استخدامها، وما يكون التصوير قد استغرقه في حدثية التذهّن الحاصل في الاجتماع اللغوي للتكلمين بالعلامات.

يضعنا هذا التقديم في مساءلة النّص الإبراهيمي، أمام مقاربة تفتحُ النّص خارج الحصر المحايث للبنيوية المغلقة، والنسقية المكتفية بذاتية النّص في دلالته، ولعلّنا ننبّه في هذا إلى أن الامر ليس بدعًا، ولا مستجدًا تماما، ففي البلاغة العربية وصنوف فنونها، كانت الإشارة والتفصيل إلى ذلك، وشرح البلاغيون في استفاضات كثيرة كيف أنّ البلاغة هي سؤال القول في تمامه الدلالي والتشكيلي، على مقتضى مراد القاصد بالكلام، والمتجه إلى مشاركيه على وجه حصول مقصده في وصول ما يريد إفهامه لهم. وهو الطرحُ الذّي نحاول فيه معالجة واحدة من قضايا التصوير في النّص، بين قرارات البلاغة في تحديد صناعة التصوير في النّص، وبين ما يفيد منه السؤال في تأويل حاصل ذلك تداوليًا. وفي هذا نقصرُ بحثنا في زاوية واحدة من تدلال العلامات، ونفردُ التحليل لواحدة من قضايا النّص في تشكيله وارتباطه بالتداولية والتواصل ومرجعيات قيام السيرورة التدلالية على وجه حدثها في توصيل وبلوغ التفاهم، بما هو الغاية الكبرى لاستخذام النّص.

- **التشبيه وإنتاج الدلالة المصوّرة:**

في مطالعة التصوير النّصي في نصوص الإبراهيمي، يلحظ القارىء استخدامه للتشبيه بقوّة دلالية، وبجودة في الانتقاء وعقد العلاقة التدلالية الموافقة لمقتضيات التداول، ولأنّ ذلك من فنون التعقّل و"المنطقة" في تمام استخدام الكلام، فقد مثّل ناظما دلاليا أعطى للنصّ صفة القوّة في الفنية، وصفة الوجاهة في التداول، وعزّز مشروعية التفاهم في بلوغ مقصد القول لدى المتلقي؛ الذّي يستوعب من التشبيه مراد الدلالة، ويحقّق الفهم الذّي يتأسس عليه الفعل والتجاوب، وهو ما يتطلب في التأسيس فهم ماهية التشبيه كما تذكره البلاغة، وكما ينبغي للدارس أن يفهمه في بعده التشكيلي، وكفاءته في الأداء التداولي. وها هنا سنأخذ بالمفهوم المقعّد في أصول البحث البلاغي، كما حدّده واحد من أساطين هذا العلم عند العرب، وكما صاغ مفهومه بعبقرية، وأقصدُ الإمام عبد القاهر الجرجاني سيّد البلاغة وصاحب الفنّ الرفيع في سؤالها. ففي مؤلفه الفذّ "أسرار البلاغة" يعرّف التشبيه على غير ما أغفله غيره، فبدا حداثيًا سابقًا إلى أبعاد في المفهوم تفوق المغلق الكلامي وتفتحه على فضاء "تدلال" واعٍ بأنّ الكلام مظهر، يستندُ في ذاكرته ومقوّمات دلالته على ما يكون أسبق من زمنية التنصيص، فالتشبيه عند الإمام عبد القاهر ليس ثوب كلام جميل أو هو واقعة نصيّة ممتعة وأدائية لحظة حدثها في الصياغة، وليس التشبيه عنده شكلًا للكلام بمرجعية ذاتية، بل يطرحُ إمامنا تعريفًا وفهما للتشبيه يجمعُ صفته البنائية بطاقته التصويرية في ارتباط اللغة بنصّها المولّد؛ والذّي هو الحياة المعقولة لدى الذات ممّا تداوله وتتصل به عضويا في مدركاتها المخزونة، ولذلك يقول الإمام: "والتشبيه قياس، والقياس يجري فيما تعيه القلوب، وتدركه العقول؛ وتستفتى فيه الأفهام والأذهان، لا الأسماع والآذان"[3]

يعدُّ القول بقياسية التشبيه، قرارا معرفيا يستلزم وقوفا عند قاعدة مفهومه، فالبلاغة كما ساءلها الجرجاني لم تعد ذلك المظهر الجمالي للكلام، ولا سطح الإمتاع التشكيلي للعلامات في مستوى تنضيدها، بل صارت مفهوما عقليا يتعلق بإنتاجية الدّلالة، وصناعة الفكرة في تمام حاملها، وهو ما يذهب بالسؤال البلاغي أعمق في البحث عن منطق التفكير بالكلام وفيه، ولذلك يتحدّد القياس ابتداءً بأنّه صناعة عقلية؛ تقوم على تعالق

الأشباه، واستنباط الحكم و(المعرفة) في توليد يستنبط نتيجة متصلّة بمقدمة من جنسها[4] ومعلوم أنّ القياس الاستنباطي قد اشتهر في صياغته منسوبا إلى أرسطو لتاريخ طويل، غير أنّ الأرسطية ليست الفهم الأوحد في ذلك ممّا جعل توسيعها بالمخالفة حدثا في صياغة متجددة لعلم المنطق وآليته القياسية فيما عرف بالمنطق الاستقرائي في العصر الحديث. وحسبنا في هذا أن نستفهم القياس بما هو آلة التشبيه وعلّته على وجهه القاعدي في المفهوم، وعلى المرجعية العامة لكينونته، إذ هو علاقة صلة يعقدها العقل في بيان ما يشترك فيه شيئان أو أكثر، فالصّفة اللاحقة بالجوهر هي محلّ القياس، وهي بابه، وبطبيعة التجنيس فإنّه ما كان للصّفات أن تتشابه لولا الطبيعة السيميائية للذوات الحاملة لها، ولما كانت اللغة تتحوّل إلى حدث في الكلام، فإنّها أتت التصوير في عقد الصلات وبناء التراسل الوصفي بين ما تريد بيانه وفي ضوء ما يكون معروفا مدركا في أذهان المخاطبين، فالأمر في التشبيه هو تقريب وتصوير وتحديد المراد بالدلالة في إسقاطه على صفة المعلوم في ذاكرة المتداولين للكلام، وهكذا فالأمر متعلّق بما تسميه السيميائيات الحديثة بـ "المؤوّل/ Interprétant" والذّي هو التصوّر الموجود في خزانة الذهن عن شيء ما، فالمعلوم هو ما يقاس عليه المراد فهمه في لحظة الكلام، وهكذا يكون التشبيه هو استخدام ذاكرة العلامات في توصيف ما نقصد حصوله في تدلالنا.

يدخلُ التشبيه في باب التصوير، ولذلك فهو لا يختص بالمفرد من الكلام، بل بالمعقود في التركيب وتشكيل العلاقات بين حدود اللّفظ، فالمعروف أنّ اللفظ المفرد في اللّغة لا يحملُ جملة بناء العلاقة في قرن الصفات بين موصوف وموصوف به، أو كما يسمّيهما البلاغيون "المستعار منه والمستعار له"، وهما المعروفان في البيداغوجيا البلاغية بطرفي التشبيه أو ركنيه وهما الذاتان الموصوفتان المصوّرتان، وتداخلهما في تماثل ما يسوغ استعاره في مظهرهما وما تعلق بهما، وفي هذا ينبسط لنا التوضيحُ في قضية تعالق الموصوفات فيما يتفق استعاره، فبحسب ذلك بيّن الجرجاني أنواع للتشبيه بآلة القياس، وشرح لك ضرب اختصاصه بدلالته وقيام تدلاله، ولعلّنا نحصيها ذكرًا لنتوسّلها في بيان أمثلتنا التّي تضمّنها نصّ الإبراهيمي وما يمكن تأويله في ذلك بسؤال أيّ نوع أتاه في صناعة مقولاته الدلالية.

إذا حدّدنا في تسمية المقاس والمقاس عليه بمعجم البلاغة فهما المشبّه والمشبّه به، وما يقوم بينهما إنّما هي الصفة التّي تبرّر نقلها من المستعار منه إلى المستعار له، بأركان التشبيه أو ببعضها، فأمّا ما كان بذكر الطرفين والأداة ووجه الشبه فهو تشبيه صريح (نقصد به كامل الأركان ظاهرها: طرفان وصفة وأداة)، وأمّا ما أغفل ذكر أحد أطرافه فهو تشبيه غير صريح؛ والذّي يعرف بالاستعارة في الاصطلاح؛ والتّي هي ضرب من تشبيه، ونمط من التمثيل، كما يقول الجرجاني. وإذا تصرّفنا في الاصطلاح الذّي يدخل علّة اللّغة في تدلالها باللفظ المفرد، فإنّنا نكون أمام ما تسمّيه من المعقولات، وما تحدّه من علامات تخزن الذوات الكائنة أو المتخيلة، كما تسمّي الحركة والعلاقات، فهي: اسم وفعلٌ وحرف. وهذا يعني أنّه لا شيء معقول خارج اللّغة كما في قرار الفلسفة الحديثة "اللّغة مسكن الوجود". وتكون الصّفات هي حركات الذوات (الجوهر) أو مظهرها، ممّا يعني أنّ التشبيه يقع في العلاقة التّي تتصل فيها الموصوفات في اتّفاق أو تماثل صفاتها.

وعلى هذا تفصّل البلاغة في سؤال معقول الكلام ضروب علاقة الموصوفات، ونسبتها إلى حاملها (الذوات) سواء كانت من عالم الحسّ أو من عالم العقل (الفكر)، وهو ما يسمحُ بتحديد عالم الحسّ بمحسوساته كما هو عالم الأشياء والكائنات، وتحديد عالم المجردات بما يعقله الذهن ويخزنه في التّصور، كما هي المجردات وما لم يكن جسمًا ولا شيئا ولا حاضرا في عالم الأعيان بذاته. فالطرفين إذن في علاقة القياس هما في المطلق: محسوس ومجرد. أو هما محسوس ومعقول كما يقول الجرجاني. ولذلك يمكننا التصرف بتوسيع مقولات البلاغة الجرجانية إلى حصر ما يلي:

1- **قياس مجرد على محسوس**: كأن يقيس المتكلم حالة شعورية فيقول مثلا: وجعي يمتد كبقعة زيت من بغداد إلى الصّين (نزار قباني)، وهذا مدرك في عقد الصّلة بين الوجع الذّي هو شعور يستبطنه العاقل، وبقعة الزيت التّي تضخّمت عن حدّها حتّى غزت ما ليس لها وأفسدت، وبذلك صار المحسوس مصوّرا للمجرد حين قيس عليه، فصار صورة يحمل حسّها صفة ما اختفى في المجرد. أو مثال قوله تعالى: ﴿**وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ**﴾.

2- قياس محسوس على محسوس: كأن يقيس المتكلم ذاتا موصوفة على ذات موصوفة في عالم الحسّ. مثال ذلك:

وما سعاد غداة البين إلّا ظبي أغنُّ جميل الطرف مكحول.

فسعاد ذات والظبي ذات، ولكليهما عينان، فاستعار لمحسوس الجمال الذي أراده لعيني سعاد صفة فائقة من جمال عيني الضبي.

3- قياس مجرد على مجرد: وهي علاقة الشبه الّتي تعقد بين المعقولات المجردات، وتتعلق أساسا بعالم الفكر والأفكار، ويكون محلّها المستحصلُ من التصوّرات المتراكمة في التداول والمعلوم من النّص في ثقافة من الثقافات، كأن يقول متكلمٌ بأنّ الحرية جنّة. فنحن هنا أمام تصوّر بالصّفة للجنّة التّي لم يحسّها أحدٌ، والحرية التي هي مطلبٌ مرغوبٌ كمثل الجنّة التي تصوّها العقل وخزنها في الذهن على مثال فائق من صفات الكمال وبلوغ السعادة، منشأ هذا التشبيه هو قياس ثقافي معقول في متداول الجماعة المنتمية إلى مرجعيات نصّية مستغرقة في الإيمان ومتّصلة في تاريخية العقل الحاضن لها.

4- وهو الافتراض الفاسد من القياس: وهو المتعلق بالاحتمال الرابع من العلاقة؛ والتي يكون فيها قياس محسوس على مجرد، وعلّة الفساد هنا وموضعه إنّما هو استحالة التصوّر وقلب حقيقة الإدراك من سيرورة التعرّف على المجهول بالمعلوم إلى تعرّف المعلوم بالمجهول. كأن يقول أحدٌ إنّ الجبل كمثل غضبي. فهنا لا يصير الجبل إلى موصوف الغضب وتكف الدلالة عن مهمّتها في بناء الفهم والتصور.

- **قراءة في نماذج:**

في ضوء هذا التوصيف للقياس وإنتاجه للتشبيه في اللغة، تكون الدلالة هي حاصل هذا التدلال في التصوير بالمثال، وعقد الصلة في التعرّف على المتصوّر ضمن تماثل الصفات، وهو ما حفلت به البلاغة وخاضت في بيانه، غير أنّنا نضيف إليها ما قرّرته التداوليات السيميائية من التحديد بأنّ كلّ تدلال هو حدث بالكلام في فضاء ناظم يستغرقه ونقصد بذلك الكون الثقافي الذي يشتغل على ضبط وتحديد المؤوّلات (Les interprétants)

والتّي هي مخزون كلّ لغة لدى مستعمليها في التواضع والتداول من المتصوّرات الموجودة في الأذهان. حيث تلحّ النظرية التداولية على "الدور الذّي يقوم به المتخاطبون في العالم الاجتماعي. فهؤلاء المتخاطبون لا يتفاعلون فيما بينهم بواسطة اللغة فحسب، بل إنّهم يقبلون ذلك التفاعل ويتعاونون عليه"[(5)]، ويعني هذا ضرورة بأنّ إدراك التصوّر في القياس الصانع للتشبيه مشروط بإدرك فضاء الثقافة الذي يمتدّ في تداول اللّغة المتكلّم بها النّص.

يضعنا ما تقدّم أمام سؤال التشبيه في كتابات الإبراهيمي، وقراءة المشبه والمشبّه به في الصّلة التّي تعقّلها القاصد بالتشبيه، وكيف "تعاون" في ذلك مع من يتواصل معهم. ونحاول أخذ نماذج للفحص والدّرس في صناعة الصورة وبناء التصوّر، وما علاقة ذلك بثقافة المتداولين.

– نماذج:

(ص 185 – عنوان المقال: القضية ذاتُ الذَنَب...الطويل) "تعوّد النّاس إطلاق الوصف على الكواكب ذوات الأذناب، لأنّهم تعوّدوا رؤيتها بالعين في بعض الأطوار الفلكية، وسماع أخبارها والمزاعم التّي تعقدُ حول أسبابها وآثارها، وأجمعوا، قبل معرفة أسبابها الطبيعية، على التشاؤم منها (...) ولكنّهم لم يتعوّدوا على إطلاق هذا الوصف على القضايا الأرضية، مع العلم أنّ منها ما يفرعُ الكواكب ذوات الأذناب طولا، ويفوقها خطرا وشؤما وتفزيعا، واذكر الآن، بعد أن نبّهناك، ما شئت من القضايا ذوات الأذناب، فإنّك ستنسى واحدةً هي أطولهن ذنبا، لأنّها دقّت في الغرابة حتّى خفيت على الأذهان، وتعاصت عن الحلّ لأنّ الذي أحكم عقدها هو الشيطان (...) هي قضية فصل الإسلام عن الحكومة".

في هذا المقطع إجمالٌ بارعٌ لما يكون الإبراهيمي قد نهجه في تصوير ما يقصده، ويريده في صناعة تدلال نصّه في مشاركته بالمخاطبين، إذ يجملُ الصورةَ في أنّ جوهر مطلبه من الإدراك والفهم ليس ما درج في المحسوسات، بل ما كمن في المعقولات، وقد حدّد نواة الفكرة في ذلك مركزًا لمدار نصّه وتدلاله وتصويره، فهو يقول بأنّ النّاس تعوّدوا (تداولوا) على معرفة المحسوس الدّال في الشؤم والشّر في قرارهم الثقافي الذّي جعل "الكواكب ذوات الأذناب" علامة عليه، فالشرّ في معجم الثقافة المتداولة في وسط المخاطبين (الجزائريين) هو

ما عقلوه في ذهنهم الثقافي عن دلالة الكواكب المرتبطة بالشيطان، ومرجع ذلك هو قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾(سورة الحجر آية 18)، ومعلوم في هذا فيما راكمته التراثية الثقافية بخاصّة الدّينية بأنّ ذوات الأذناب من الكواكب هي طارىء نجوم مضيء حول الشمس، ارتبط في الإيمان والرّوحانية بالشؤم والشيطان والشرّ المتربص بالأرض وعمّارها، وقد أتى الإبراهيمي بهذا المصوَّر القّار في خزانة الذهن لدى متلقيه وشركائه في التواصل، ليجعل ذلك مرجع تصويره، ثمّ يقول لهم بأنّ ما يعتقدونه من شرّ في عقيدتهم ويزيدون عليه بالظنّ والزعم والتهويل، وما يتواضعون عليه في قراءة الفلك الدّال، يستفهم شرّ الأرض لو يدركون، ومنه الأدهى لو انتبهوا إلى ما هو "أرضيٌّ" منه، وهنا يسمّي الاستعمار بالشيطان ويحدّده بصورة فعله في قضية "عقلية" على صفة ذوات الأذناب بما تحمله من شؤم وخطر وشرّ، ويذكرها في قضية "فصل الدّين الإسلامي عن الحكومة، وهو تصوير بارع صنع به تدلالا بارعًا عقد الصّفة في كثافة سيميائية حين قاس ما هو واقع من إفساد من طرف الاحتلال في تخريب حياة المسلمين الجزائريين ومحاربة دينهم. وبالطبع يكون الفهرس الثقافي مولّدًا لما قصد إليه وأراد حدوث دلالته لدى المعنيّين بالتصوير في هذا.

(ص 221 – مقال بعنوان: اللّغة العربية في الجزائر عقيلة حرّة، ليس لها ضرّة). في هذا النّص يعقد الإبراهيمي قياسه فيما يعرفه المخاطبون ضمن حياتهم السسيوثقافية، إذ يصلُ بين اللّغة العربية والمستعار منه (الضّرة) في صفة التزاحم والمشاركة فهو يأتي بالمقيس عليه من واقع الحياة الاجتماعية؛ فيذكر صورة المرأة التّي في عصمة زوجها، فهي سيّدة في مقام العزّ حتّى تدخل عليها ضرّة فتفقد ذلك وتدخل في ذهاب عزّها، وكذلك اللّغة العربية التّي عمل الاحتلال على سلبها عزّها ومقامها المفرد بالسلطان، وذلك حين أراد لها أن تزاحم من طرف ألسنة أخرى، وينفي الإبراهيمي أن يكون ذلك ممكنا لما للغة العربية من سيادة لا تضاهى. وهذا تصوير تداولي بارع إذ عقد التصوير على وجه معقول اجتماعي يعرفه النّاس ويقرّون بمرجعيته ثقافيا، ولذلك فقد أتت صناعة الدّلالة ها هنا بمطلبها على وجه الوضوح وحدوث الفهم وتمام الإدراك.

(ص 225): "هذه الأمّة أصبحت كالتّاجر الحذر من تقلّب الأسواق، لا يصارفُ إلّا يدا بيد": أتى الإبراهيمي في هذه الصورة ببيان حال صارت إليها الأمّة الجزائرية؛ فعقد القياس في التوصيف، حيث استدعى صفّة مهنة دارجة في التداول معلومة عند النّاس مشهودة في حياتهم؛ والتي هي التجارة، فذلك التاجر الحذر الذي لا يبايّع سوى يد بيد صفته الحذر وعدم الثقة، وهي صفّة مخزونة في العرف والمعرفة الثقافية لدى النّاس ممن يعيشون في يومياتهم سلوك البيع والشراء، فاستعار تلك الصّفة المعلومة في التداول الثقافي ليصف بها حالة أمّة فقدت الثّقة من طويل ما تعرّضت إليه من مخادعة، ونكث راسخ في سلوك المحتل وأوصافه، وبدل الإخبار المباشر بذلك، صنع النّاص صورة دلالية نافذة في ذهن متلقيه، مستدعيًا ما هو مخزون في نصّه الثقافي المتداول، وبذلك قاس مراده من حدث الدلالة على ما هوحادثٌ راسخ في ذهن الجماعة.

(ص238): "إنّ هذه الأشياء الرّوحية التّي تسمّى الدّين والعقيدة والضمير، هي أشياء طبيعية، بل هي أجزاء من الوجود الإنساني، فمقاومها كمصارم الجبل الأصمّ، لا يبوء إلّا بالزعزعة والضعضعة": في هذا التشبيه قياس أنتج الدلالة في انعقاد الصّلة بين صورة محسوسة طبيعية؛ هي قرار موصوف العجز والاستحالة المتعلق بنزول المناطح للجبل من إنسان أو سواه من الحيوان، عن تحقيق نتيجة إضراره، وقد قاس عليها من يغالب في الدين والعقيدة ظنّا منه أنّه يستطيع إزاحتها، ولذلك قال الإبراهيمي بأنّها على صورة الطبيعة غير القابلة للإلغاء، تماما كما هو الجبل عصيٌّ بقوته على من هم عاجزون أمامه، يعاندون توهمًا، والحاصل دوام القويّ بطبيعته، وانهزام من ظنّ بوهمه أنّه يستطيع العكس. وهذا التصوير تدلالٌ في القياس عقد التشبيه وولّد كفاءة توصيل الدّلالة من حيث أنّ المتداول في الصورة المقيس عليها من ثوابت ما يعرفه المتخاطبون، فلا يردون حجّته.

(ص 55: من مقال الحجّ): "ولكنّنا سكتنا حتّى ينتهي الشريط وتتم الرواية التّي ابتدأت فصولها يوم أعلنت الشروط والأسعار والمواقيت إلى يوم سافرت السفينة في بحرين: بحر من الماء **وبحر من الفوضى والاختلال**"، يتحدث هنا الإبراهيمي عن قضية الحجّ؛ والتي انتقد فيها أداء الحكومة، وعبّر عن رفضه لما عبثت فيه في شؤون المسلمين، وأدان سكوت

الناس عن ذلك، ويقول بعد ذلك بأنّ سفن الحجّ أبحرت في الماء، وأبحرت في الفوضى فالمحسوس من إبحار السفينة في الماء مشهود مشاهد، غير أنّ احتلال هذه القضية هو إبحار في الفوضى، وهو قياس أنتج تصوير شبه في الصّفة، فالفوضى واختلال البحر خطر مهدّد بغرق وهلاك، وذلك ما رمى إليه النّاص ويدركه متلقيه، فالمعقول تجلّى بدلالة المحسوس.

(ص274): "إنّ الحكومة تسمّي أعمالنا الدّينية سياسة لتحاربنا بذلك، كما يلبسُ القوي خصمه الضعيف لباس الجندي، ويقلّده شبه سلاحه ليقول للناس: إنّه جندي، وإنّه شاكي السّلاح، وإنّه مقاتل. وإنّه يريد أن يقتلني فيستبيح بذلك قتله...": في هذه الصورة التشبيهية أنتج الإبراهيمي دلالة على مراده ومقصده، تختزلُ تصوير علاقة جمعية العلماء ونهجها في الإصلاح بالحكومة الاحتلالية المعتدية، فصوّر ذلك على استبدال لتسمية الطرفين، وقاس بالصورة المستعارة الصورة المراد فهمها، فالمعتدي بسلاحه يعمد إلى التدليس بصناعة خصمه الضعيف على هيأة مقاتل، ثمّ يبرّر اعتداءه بالشكل الذّي اختلقه لمضمون ليس واقع، فالمخاطب يتصوّر ذلك ويفهمه، ويحصل بالقياس في ذهنه ممّا تعرّفه تمام دلالة كيف أنّ حكومة المعتدي المحتل مخادعة كاذبة في اتّهام الجمعية بالسياسة، فصورة المتبارزان في الحرب بحدّ السيف مخزون ذهني في المتداول الثقافي؛ الذّي يعرف النّاص أنّه من المعلوم الحيّ في جماعته.

خاتمة:

من هذه الأمثلة، فيما حاولنا التدليل به على ما يكون الإبراهيمي قد استخدمه في التدلال بالتشبيه، لحظنا أنّ أكثر ضروب القياس المولّدة للتصوير، وصناعة الدّلالة كانت قياس المعقول (الفكرة) على المحسوس، أو على المعقول المتداول في الثقافة، ويعني ذلك أنّ التدلال بالتشبيه وليد قياس يأتيه العقل على مقتضى الإجبار الثقافي التداولي لجماعة المتناصّين، ويعدّ هذا بلاغة تواصلية مبنية على "موافقة التصوير لمقتضى الدلالة"؛ وهو قرار تداولي ثقافي يتعلّق بطبيعة النّص، فالإبراهيمي يريد ويقصدُ إلى إنتاج قاعدة الوعي على قاعدة الفهم، وهو ما يبني في سلسلة الفعل تحوّل الفكرة إلى منجز، فالهدف من الكلام المنصوص، ليس بلاغة نظم وأسلبة الجمل لأنّ جمالية اللّغة ها هنا ليس مقصدًا تدلاليا

بذاته، وإنّما المقصد والهدف هو تمام الفكرة، ولذلك كان القياس في ضرب المعقول على المحسوس، وذلك أقدر وأجدى على صناعة الوحدة الفكرية وتحجيج القضية المركزية؛ والتي هي بؤرة النّص الإبراهيمي، والتي هي تقويض الاحتلال وبعث الذات الجزائرية في اتجاه نضجها، ووعيها الذّي يطلب حدّ الفاعلية في إزاحة الاحتلال. ولذلك لم يستعمل الإبراهيمي قياس المعقول على المعقول إلّا قليلا، وهو أمر طبيعي وتداولي، إذ ينتمي قياس المعقول على المعقول، إلى ثقافة ومجتمع قطعا شوطا في المعرفة والفكر والتفلسف، وهو ما لم يكن حاضر الإبراهيمي في جماعته ولو كان هو مفكّرا بارعا ومحيطا بذهنه واسعا بالمجردات وعلينا أن نفهم بأنّه أنزل –كما هو نهج الجمعية– الفكر منزلة الوظيفة الإصلاحية واستخدم كفاءته في اتجاه تداولية منتجة للفكرة الدافعة إلى حضورها العملي في السلوك وفي الإنجاز. وهو السياق والمقام الذّي يُجبرُ فيه النّاص كاتبا ومتكلما على مراعاة ذهن الجماعة واستخدام نصّها الثقافي لموافقة حصول التواصل، وإنتاج الفهم. فقياس المعقول على المعقول يعدّ درجة من الفكر يملكها الإبراهيمي ولا يستخدمها كثيرًا لقوّة عقله وبلاغته، من حيث هو يعي الحدث النّصي، ويستهدف تداوله.

الإحالات والهوامش

- **المصدر**: محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، من آثار محمد البشير الإبراهيمي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.

(1)– بدوي طبانة، قضايا النقد الأدبي، دار المريخ، الرياض، 1404هـ/1984م، ص:60

(2)– سعيد بنكراد، السيميائيات؛ مفاهيمها وتطبيقاتها، ط2، دار الحوار، سورية، 2005، ص33.

(3)– عبدالقاهر الجرجاني، أسرار البلاغة في علم البيان، ط1، بيروت، 1409هـ/1988م، ص15.

(4)– محمد مهران، علم المنطق، سلسلة كتابك (92)، دار المعارف، مصر، ص 49، 56.

(5)– فيليب بلانشيه، التداولية؛ من أوستين إلى غوفمان، تر: صابر الحباشة، ط1، دار الحوار للنشر والتوزيع، سورية، 2007، ص 84.